

علاقة الأنا والآخر في فلسفة جون بول سارتر

حلوز جيلالي مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها

جامعة تلمسان

الملخص:

أصر سارتر على ضرورة وجود الغير حين جعل الأنا موجود في مقابل الأنا افكر اعترافا منه بوجوده في العالم و بين الأشياء في صراع دائم مع الآخر، في مشاركة تعد وسيطة للتواصل بين الوعي لدى الآخر ووعي الأنا ، على اعتبار أن الغير هو عنصر مكون للأنا ولا غنى له عنه في وجوده ، غير أن العلاقة الموجودة بينهما هي علاقة خارجية وانفصالية ينعدم فيها التواصل ما دام يعامل بعضها كشيء وليس كأنها آخر ، وهكذا يصبح الغير جحيما بالنسبة للأنا ، رغم أن سارتر يعتبر وجود الغير ضروري لوجود الأنا ووعيه بذاته بوصفه ذاتا حرة متعالية.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الفينومينولوجيا، الذات المتعالية، الوجود.

تقديم

إن إشكالية مفهوم الشخص متعددة الأبعاد ، بين الشخص الاجتماعي والتاريخي وما إلى ذلك، فكل شخص ذات واعية حرة مسؤولة، الشخص كائن قائم بذاته ولذاته، ولكنه كتفكير ليس فردا معزولا عن الآخر أو بالأحرى لا يمكن الإقرار به وبكيانه إلا مع الآخرين حتى تتحقق الغايات والمشاعر والمواقف المشتركة والمعان المختلفة كالحزن والفرح والعداوة والتسامح، فهذه المعان لا تأخذ مكانها إلا داخل الارتباط الكياني بالآخر أو الغير، فكل تلك المقومات لا يصبح لها معنى ولا تؤدي وظائفها إلا بوجود هؤلاء الغير الذين يتممون العالم الإنساني، ويحققون وجوده هذا المفهوم العام الذي يأخذ أبعاده داخل هذا الكيان المتكامل الذي يعكس تلك العلاقة بيني وبين غيري .

إذن فتحقق الوجود الانساني مرهون بحضور ذوات انسانية أخرى ذوات الغير، فلا يمكن لأي " أنا " أن تعيش بمعزل عن آخرين حتى تتحقق ذاته والوعي بها، فحضور الغير مسألة أساسية وضرورة ملحة بالنسبة للأنا، والغير هاهنا يكمل وعي الأنا بذاتها ووعي بوجودها.

إن مسألة الغير ضاربة جذورها في تاريخ الفكر الفلسفي منذ اليونان، غير أن هذا المفهوم لم يتبلور باعتباره آخر بل كل ما في الأمر اعتباره كل ما ليس ومخالف للذات، في حين تمت بلورة هذا المفهوم في العصر الحديث مع هيجل خاصة الذي جعله محور جدليته، وجعل إدراك الماهية رهن الأنا في علاقتها مع الآخر، إلا أن الفلسفة المعاصرة اعطت أبعادا أخرى لهذه الالتزامية في الحضور بين الأنا والآخر خاصة عند فلاسفة الذات، والفلاسفة الفرنسيين خاصة أمثال ليفيناكس ومرلوبونتي وريكير و سارتر وغيرهم، فما هو الغير يا ترى؟ وما علاقته بالأنا؟

إن الهدف من وراء هذه الأسئلة هو الكشف عن تلك العلاقة المرتبكة بين الأنا والآخر في مسيرة تطورها في ثنايا الفلسفة المعاصرة، وعلى وجه الخصوص في الفلسفة الفرنسية المعاصرة مع كل من ليفيناكس و رلوبونتي و سارتر على

وجه الخصوص. فكيف نظر سارتر إلى الأنا في علاقتها مع الغير؟ هل من الضروري حضور الغير حتى تعي الأنا وجودها وتحقق هويتها؟ هل حضور الغير مشاركة مدعاة للسلام؟ أم أن اضطهاد الغير أمام مركزية الأنا هو ما يجعل الأنا تعي أنها؟

الذات يستجلب الحديث عن الآخر، لذلك فالارتباط بين الغير والذات وثيقة، كعلاقة ضربت في اعماق التاريخ البشري، فقبل سقراط كان اليونان لا يولون الاهتمام بالإنسان، بل كان اهتمامهم يتمحور حول كل ما هو ديني ومسرحي، أما الاهتمام بالإنسان فقد ارتبط بسقراط انطلاقاً من المقولة الشهيرة (أعرف نفسك بنفسك)، لكن الأجداد كان والآخرى به وقد قضى حياته محاوراً لغيره، أن يغير من تلك الحكمة لكي تصبح (أعرف نفسك بغيرك)¹

ومع أفلاطون تسامى الإنسان أو الفرد عن طريق ما يضمه لغيره، سواء الحب أو الكراهية أو الانانية، وهذا الاضمار الذي يعكس حضور الغير دائماً، والذي صرح به أفلاطون، وكذا عند الرواقيين ومن بعدهم القديسين والفلاسفة والمفكرين. ومنهم المتأخرين وصولاً إلى سارتر وقبله الوجوديون كيركيغارد وجبرييل مارسيل، فمما ميز الفلسفة الوجودية إلحاحها المستمر والدائم بضرورة وجود الآخر، فالمفكر الذاتي على حد تعبيرهم لا يمكنه الحكم على ذاته، بل على غيره لأن كل حكم معناه المقارنة فحكمك على نفسك يعني حكمك على غيرك.

لقد تطرق سارتر إلى قضية الغير على إثر الانتقادات التي قدمها لكل من هوسرل هيغل وهيديغر، إن مقولة سارتر الأساسية هي (الموجود لأجل ذاته) أي الوعي، وأول ما يميز الوعي هو الحرية، ويرى سارتر أن الموجود لأجل ذاته يحيل نوعين من الوجود فوجود الآخر يكشف عن النظرة الفينومينولوجية للشعور بالخل.²

يستند سارتر إلى الوعي في فلسفته ذلك الموجود لذاته بالإضافة للموجود للآخر الذي يكشف عن الشعور بالخل الذي هو صورة من صور الوعي، فالخل صورة ذاتية صرفة والخل يصلني بنفسني وأيضاً أمام شيء ما ، لذا كان وجود الغير واسطة وظهوره يجعلني انظر إلى نفسي كموضوع فأنا في حاجة إلى غيري وأنا أتعرف على نفسي كما يراني غيري فالوجود لذاته يرتبط بالوجود للغير فهما شكلان لا ينفصلان من الوجود.³

فالعلاقة بين الأنا والآخر ليست علاقة معرفة، وإنما هي علاقة وجود فلا ينبغي أن أسعى لفهم وجودي ووجود الآخرين على أنها موضوعات معرفة متبادلة، بل ينبغي أن أتوحد في وجودي، وأن أقيم مشكلة الآخر ابتداءً من وجودي، أما الفلسفات التي تناولت العلاقة بين الأنا والآخر على أنها علاقة معرفة مثلما تعرف المثالية والواقعية.⁴

¹فؤاد كامل - الغير في فلسفة سارتر - دار المعارف في مصر - د.ط.د.ت. ص 12

²حبيب الشاروني - فلسفة جان بول سارتر ، منشأة المعارف بالإسكندرية د.ط. دت ص 163.

³حبيب الشاروني - فلسفة ج ب سارتر ص 164.

⁴ j.p Sartre .l'être et le néant .Essai a l'ontologique phénoménologique .Ed .Gallimard .1943,p 275-277.

يصرح سارتر أن مسألة الآخر تطورت وتقدمت بإسهام كل من هوسرل و هيدغر و هيغل. فهو سرل تقوم عنده العلاقة بين الأنا والآخر عن طريق العالم. (لأن العالم كما ينكشف للوعي يحيل إلى الآخر باعتباره شرطا لتأسيس العالم)¹، وبما أن الأنا هو جزء من العالم، فالآخر يظهر كذلك من حيث هو شرط لتأسيس الأنا، فبالنسبة لهوسرل العالم كما يتجلى للوعي هو علاقة داخلية بين المونادات أو الجواهر الفردانية. والآخر ليس حاضرا في العالم كظهور عيني أمبريقي فحسب، إن الآخر موجود دائما هناك كطبقة من الدلالات المكونة للموضوع الذي أتفحصه.

إلا ان سارتر لا يرى هذه العلاقة كافية لإثبات وجود الآخر وتبقى مجرد احتمال لا أكثر، إن الغير بطبيعته موجود خارج العالم. أما في فلسفة هيغل فهي تظهر في الصراع بين العبد والسيد فكل طرق سواء الأنا أو الأخر يسعى لتحطيم الآخر من أجل تأسيس ذاته.

أما هيدغر فقد نظر إلى المسألة نظرة أنطولوجية، وهو ما يميز هيدغر عن غيره فهولا يتناول العلاقة بين الذات والآخر على أنها علاقة عقلية، لا بل هي علاقة وجودية. إلا أن ما يأخذه سارتر على هيدغر هو أنه لم يبدأ من الكوجيتو، ويعتبر ذلك إخفاقا، وهذا إن دل فإنما يدل على أن سارتر انطلق من الكوجيتو، وربط اكتشاف الآخر باكتشاف الأنا، فالمشكلة الحقيقية في نظر سارتر ليست في وجود الآخر فوجود الآخر لا يحتاج إلى برهان، بل المشكلة هي العلاقة بالآخر: "فإذا لم يكن الآخر حاضرا حضورا مباشرا أمامي، وإذا لم يكن وجوده مؤكدا مثل وجودي فإن أي تخمين عنه يكون خال من أي معنى"². "فمن المؤكد أنني لا أؤمن بوجود الآخر... وإنما أجد الآخر نفسه وأقره باعتبار إياي أي باعتباره كل من عداي."³

وجود الغير والوجود لأجل - الغير عند سارتر:

سبق وأن رأينا ان المقولة الأساسية في فلسفة سارتر هي (الموجود-لأجل-ذاته) أي الوعي فسارتر يعتمد في فلسفته على الوعي، ذلك الموجود لأجل ذاته وما يميز الوعي الحرية بالإضافة إلى الموجود في ذاته، والموجود للآخر، يرى سارتر أن "الموجود - لأجل ذاته يحيل إلى نوعين آخرين من الوجود هما: وجود الآخر والوجود - لأجل الآخر، وهذان النمطان للوجود يضيفان معاني جديدة للحرية"⁴.

أما وجود الآخر يكشف عن الشعور بالخجل، والخجل صورة من الوعي وهو لا يصدر عن تأملات الذات لنفسها أبدا. الخجل عاطفة تكشف لنا عن التركيب الوجودي، ف فضلا عن أنه حالة ذاتية صرفة، نراه يزيد على الحالات الذاتية الصرفة أنه محيل إلى شيء غيره، وفي نفس الوقت الذي يحقق فيه الخجل صلي بنفسي، ... اكتشف أنني

¹حبيب الشاروني. فلسفة ج ب سارتر ص 165.

² j.p Sartre .l'être et le néant .Essai a l'ontologique phénoménologique p308.

³ j.p Sartre .l'être et le néant .Essai a l'ontologique phénoménologique p309.

⁴حبيب الشاروني. فلسفة ج ب سارتر ص 163.

أخجل من نفسي كما تبدو للغير، و ظهور الغير يحلمني على النظر إلى نفسي كموضوع إذ أنني كموضوع أبدو للغير ... وهو خجل من نفسي أمام الغير، وهكذا أجدني في حاجة إلى الغير لأدرك ما في وجودي من مقومات)¹.

فالشعور بالخجل يكون دونما النظر إلى النفس أو تأملها أو دراستها فبالخجل هو وعي بالخجل وشعور به وهو بذلك يعد حالة ذاتية يصلنا بأنفسنا، لذلك كان وجود الغير واسطة وحضوره يجعلنا ننظر إلى أنفسنا كمواضيع، فنحن بحاجة إلى الغير للتعرف على أنفسنا، لأننا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا، وانطلاقا من ذلك وعلى هذا الاعتبار فالوجود لذاته مرتبط بالوجود للغير، فهما لا ينفصلان عن الوجود، فعلاقة الأنا بالآخر علاقة وجود فمشكلة الآخر تقوم انطلاقا من وجودي، وهذه العلاقة كثيرا ما كان ينظر إليها على أنها علاقة معرفة، وذلك عند المثاليين والواقعيين: "إن العلاقة بين الأنا والآخر ليست في الاعتبار الأول علاقة معرفة، وإنما هي علاقة وجود فلا ينبغي أن أسعى لفهم وجودي ووجود الآخرين على أنها موضوعات معرفة متعادلة بل ينبغي أن أتوكل في وجودي وأن أقيم مشكلة الآخر ابتداء من وجودي"².

فالفلسفات التي زعمت أن تلك العلاقة هي علاقة معرفة قد فشلت في تعيين حقيقة تلك العلاقة، وأبقت على الفرد في وحدته الأنطولوجية بحيث اقتصرنا على تحديد وتعيين الوجود الجسدي للغير، والمثالية أرادت أن تجسد الواقع داخل الفكر، والفكر لا طاقة له لأن يصلني بالعالم الخارجي لذلك وكما سبق وأن تطرقنا أخذ سارتر هيدغر وأقر وأصر على وجوب البدء من الكوجيتو الديكارتي إذ يقول سارتر: "فالعلاقة الأساسية بين وجودي ووجود الغير إذا اقتصرنا إلى جسدي بجسدي الغير، فستكون مجرد علاقة خارجية ... وتنبغي على أن أدرك أولا الغير على أنه ما من أجله أنا أوجد كموضوع"³.

فالغير في نظره ليس أداة تجربتي فهو الذي أراه وهو أيضا يراني ويجعلني موضوعا فهو ليس ظاهرة تحيل تجربتي أنا الخاصة كما أنه ليس تصورا منظما، فقد عرف سارتر الغير بقوله: "الآخر هو الأنا التي ليست أنا"⁴. ويضيف: "الآخر ليس أنا، وأنا لست هو، إن عبارة (ليس) تدل على العدم، من حيث هو عنصر معطى يفصل بين الآخر وبينني... وهذا العدم لا يستمر أصله مني ولا من الآخر... إنه غياب أصلي لكل علاقة"⁵.

على إثر ذلك يمكننا أن نجزم أن المشكلة ليست مشكلة وجود الآخر، لا بل المشكلة الحقيقية هي علاقتي بالآخر، فوجود الآخر أمر محسوم لا يشوبه شيء، أمر قائم مسلم به ليس بحاجة لبرهان. "إن المشكلة الحقيقية ليست هي مشكلة وجود الآخر إنما هي مشكلة علاقتي بالآخر، أما وجود الآخر حاضرا حضورا مباشرا أمامي، وإذا لم يكن وجوده مؤكدا مثل وجودي فإن أي تخمين عنه يكون خاليا من أي معنى... فمن المؤكد أنني لا أخمن وجود الآخر...إنما أجد

¹فؤاد كامل - الغير في فلسفة سارتر ص 19.

²حبيب الشاروني. فلسفة ج ب سارتر ص 164

³جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجية الظاهرية، ترجمة عبد الرحمن بدوي. منشورات دار الآداب بيروت الطبعة الأولى، 1966، ص322.

⁴جان بول سارتر. الوجود والعدم. بحث في الأنطولوجية الظاهرية ص 322.

⁵حبيب الشاروني. فلسفة ج ب سارتر ص 166.

الأخر نفسه و أقره باعتباره ليس إياي، أي باعتباره كل من عداي...إن وجود الآخر له طبيعة واقعية لا يمكن إنقاصها، إننا نلتقى بالآخر ولسنا نؤسس الآخر، وهذا ما يؤكد أن المشكلة هي مشكلة علاقتي بالآخر وليس مجرد وجود الآخر". وعليه كيف يمكن فهم ماهية علاقة الأنا بالآخر؟

علاقة الأنا بالآخر بين الالتقاء والتأسيس:

إن وجود الآخر ليس أنا طبعاً، ومنه يترتب عن ذلك ضرورة الوجود المؤكد للآخر كوجودي أنا، فالعلاقة بين الآخر والأنا، إذن هي علاقة التقاء لا علاقة تأسيس، فالمشكل الحقيقي لدى سارتر لا يكمن في وجود الغير بقدر ما يطرح مشكلة علاقة الغير داخل إطار الرهان المتعلق بالحرية. وسبق سارتر لذلك كل من ليفيناص وريكور في تطرقهم للعلاقة التي تربط الأنية والغيرية وطبيعة هذه العلاقة.

لقد تحدث كل من غابرييل مارسيل، وجان فير، وليفيناص عن العلاقة الأولية الأخلاقية للآخر غير الذات على الذات نفسها ويبقى يلاقي دخول الآخر المفاجئ كاسرا حاجزا العينة تواطؤ هذه الحركة من التلاشي التي بفضلها تصبح الذات متهيئة لتقبل الآخر غير الذات، لأنه لا يجب ألا تكون نتيجة "أزمة" الهوية الذاتية استبدال احترام الذات بكرهية الذات¹.

لقد قدم ليفيناص إيتيقا ترتبط مباشرة بالعلاقة مع الغير، الإيتيقا بمعنى المسؤولية الشاملة على الغير، الإيتيقا على خلاف الأنطولوجيا المعاصرة التي تختزل الآخر وتخضعه لمقولات الوجود، فالشعور بالمسؤولية وحاجة الغير إلى هو ذاته اللإيتيقا²

لقد اقترح ليفيناص إيتيقا تأسس لخير مشدود إلى الحق، وقام بتوضيح العلاقة مع الآخر، فحضور الآخر بالنسبة له لا يدعو بالضرورة للصراع والعنف بقدر ما يعبر عن "علاقة قبول وفي هذا القبول تكمن انسانية الانسان"³ فشرط إقامة الإيتيقا حضور الآخر فينومينولوجيا ترفض من خلالها العنف، ويدخل الآخر في علاقة مع اللانهائي والمطلق وتستبعد كل قصدية للهيمنة على الغير. قصدية تحفظ مركزية الأنا أمام الغير، على خلاف سارتر يقول ليفيناص بعلاقة المجاورة والتي تعني التقرب من الغير والشعور به ولمسه وكذا الإحساس به خلافا لما يعطي في الظاهر ومن عملية المعرفة.

أما مرلوبونتي فقد وجد في مسألة البينذاتية حقلا أنطولوجيا لمسألة الآخر طرح من خلاله سؤال الجسد في العالم، وعلاقته بجسد الآخر، على اعتبار أن الانسان ذات متجسدة في العالم، الأنا الجسدي في علاقة اجتماع بالآخر بعيدا عن سلطة الكوجيتو على أن تظهر الأنا كذات متجسدة في وجود مشترك في العالم رغبة في الوجود مع الآخر.

¹ بول ريكور . الذات عينها كآخر . ترجمة جورج زيناتي. المنظمة العربية للترجمة. بيروت لبنان. ط 1 نوفمبر 2005 ص 339

² Rodolphe Calvin .François Sebbah .le vocabulaire de Levinas .ellipses.2002.p23

³ E. Levinas .le temps et l'autre. broché octobre 2004 .paris . p13

أما وجود الآخر عند سارتر ليس وجودا انطولوجيا بل وجود واقعي، فالأنا تجد الآخر أمامها كواقعة قائمة، و خبرة الأنا بالآخر تأخذ صورة الأنا المدركة أي أنا أخرى تنظر إليها، هذه النظرة تجعل الأنا موضوعا للآخر، شيئا ماديا ينظر إليه من قبل أنا أخرى وعندئذ تنتفي الحرية المطلقة للأنا نظرا لوجود أخريقيدها وينظر إليها على أنها موضوع.

فظهر الآخر يحول العالم (عالم الأنا) إلى صراع حيث يذهب إلى أن هذه العلاقة يدخل فيها الجسد، بحيث يصبح مسيطرا عليه، وهو ما يعكس علاقة السيد والعبد عند هيغل، لكن يتجنب وبذلك استخدام المصطلحات الهيجلية لأنها ستجعل " الوجود والعدم" إعادة صياغة (لفينومينولوجية الروح).

ومن هذا الاعتبار تأخذ العلاقة بين الأنا والآخر شكلين أساسيين فإما أن تنكر الأنا حرية وسيطرة وسيادة الآخر على نفسه، ويتحول بذلك إلى شيء يعتمد كلياً على الآخر، أو الاقرار بحرية الآخر على اعتبار أنها أساس حريته. فالأولى تؤدي إلى السادية أو التلذذ بتعذيب الآخر والسيطرة عليه، والثانية مفادها المازوخية. وهي التلذذ بسيطرة الآخر على الأنا والرضوخ له والخضوع التام، لذلك تبقى العلاقة بين الأنا والآخر تتراوح بين السادي والمازوشي في حركة دائرية وبالتالي تصبح علاقة الأنا بالآخر علاقة دائرية لا علاقة جدلية كما أقرها هيغل.

هذا الاستحداث الجديد لسارتر يعكس التحول الفينومينولوجي لمنهجه في الوجود والعدم، من فينومينولوجية أنطولوجية، إلى علم نفس فينومينولوجي، وهو النزوع الجديد الذي تجنبه هوسرل نفسه، إذ ينجذب التحليل الفينومينولوجي عند سارتر إلى علم النفس في تحليلاته لعلاقة الأنا بالآخر.

ضف إلى ذلك فإن سارتر لا ولم يختلف أبداً مع كل من ليفيناص ومرلوبونتي في قضية ضرورة حضور الغير، وفي كون الغير إثبات لوجود الأنا، على اعتبار أنا الغير أنا آخر، ولا يمكن أن نقول بوجود أنا إن لم نقر بوجود أنا أخرى. كما أنه يتفق مع مرلوبونتي في قضية الاشتراك الجسدي بين الأنا والآخر في علاقات مختلفة، لكن ما لم يتفق معهم هو قوله بالحضور السلبي للآخر فسارتر ينظر للآخر على أنه سر الحروب والعنف على العكس من ليفيناص.